مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي

طالب الدكتوراه علي أصغر قاجار
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزادي كاشمر ـ إيران
aasghar.ghajar@gmail.com
محمد شايغان مهر (الكاتب المسئول)
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزادي كاشمر ـ إيران
shaygan47@gmail.com
محمد جعفري
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزادي كاشمر ـ إيران
d.m.jafari92@m
d.m.jafari92@gmail.com

Moral Virtues in Pre-Islamic Poetry

Ali Asghar Qajar
PhD student , Islamic Azad University , Kashmar Branch , Kashmar , Iran
Dr. Mohammad Shayegan Mehr (Responsible writer)
Assistant Professor of Islamic Azad University , Kashmar Branch , Kashmar , Iran
Dr. Mohammad Jafari
Assistant Professor of Islamic Azad University , Kashmar Branch , Kashmar , Iran

الملخص:

إنَّ الأخلاق، من أهم الخصائص و القِيم الإنسانية القيمة التي أودَعها الله (عزوجَّل) في نفس الإنسان. و يشتمل على الغرائز و المقاييس الخصال الروحية و الباطنية في ضميره، لهذا تقسّم الأخلاق إلى الأخلاق الذميمة و المحمودة.

هذا القيم الإنسانية كانت لها أهمية خاصّة منذ خلقة آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، و أيضاً كانت مشهودةً بأنواعها بين الأعراب الجاهليين، مذمومةً كانت، أو محمودةً، كمثل الكرَم، الشجاعة، العصبية، الخشونة، اللّجاجة، السّفاهة، حماية الجار و.... و لكن ليس لبعضها أساس واصول معينة و صحيحة قابلة للتحليل.

على هذا انّا بحثنا عن المكارم الأخلاقية في اشعارهم و كلامهم التي كانت رائجةً بين الجاهليين قبل الإسلام.

الكلمات المفتاحية: مكارم الأخلاق، العصر الجاهلي، الشعر.

Abstract:-

Morality is one of the most substantial and worthwhile (spiritual) values which God has placed in the institution of each human being including instincts and spiritual and numinous scales within him. Therefore, morality is divided into ugly and proper ones.

These moral values have been of special significance from the very beginning of Adam creation till now. Hamtin is evident among pre-Islamic Arabs of various kinds, ugly or proper, such as grant, braveness, crotchet, violence, stubbornness, foolishness, ignorance and neighbor protection and so on, but there is no determined and ell-defined criterion which is problematic and should be investigated.

However, our research examines common moral virtues in poetry and pre-Islamic speech.

Key words: moral virtues, pre - Islamic Arabs, poetry.

المقدمة:

إنّ الأخلاق لها مكانة رفيعة في العالم و تعدّ الغاية التي من أجلها أرسل أنبياء كثيرةٍ من جانب الله تعالى، فذلك يدل على أهمية الأخلاق، إلاّ أنّ الأخلاق الكريمة من الأمور الهامة و ذلك بسبب ظهورها للناس، فإنّ العقيدة غير ظاهرةٍ لأنّ محلها القلب، كما أنّ العبادات لا تظهر جميعها بشكلٍ واضحٍ. لكنّ الأخلاق واضحةٌ من خلال تعامل الشخص مع غيره، و بذلك فإن الحكم على الدين مبني بالحكم على الأخلاق. كما أنَّ الأخلاق من أنجح و أقوي الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى. إنَّ الأخلاق تعدّ الأساس الذي يقوم عليه بقاء الأمم، حيث إنَّ بقاء الأمم مرتبطٌ ببقاء الأخلاق وانهيار الأخلاق، و يؤدي إلى انهيار الأمة حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (أسراء/ ١٦).

إنَّ الأخلاق من أهمَّ الأسباب التي تؤدي إلى نشر المحبة و المودّة بين الناس، و إنهيار العداوة و الخصومة و مما يدل على ذلك قول الله تعالى ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت/ ٣٨). من المعروف و الشائع إن المجتمع العربي قبل الإسلام مجتمع قبلي عشائري و بطبيعة الحال فإنّ المجتمع العشائري له مواصفات خاصة تختلف عن المجتمعات المدنية فله عاداته و تقاليده التي يمكن أن يخرج عن الألتزام بها.

يؤكد بعض الباحثين كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها و هم الذين يربط بينهم الدم و النسب و هم عمادها و قوامها، و العبيد و هم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة و خاصة الحبشة، و الموالي و هم عتقاؤها و يدخل فيهم الخلعائ الذين خلعتهم قبائلهم و نفتهم عنها لكثرة جرائرهم و جناياتهم. ... .(ضيف، ص٦٧). وقد أثرت هذه البيئة بحياتها القاسية على نفسية الناس في ذلك العصر و سادت طبائع و أخلاق معينة تتناسب و تلك البيئة الصحراوية الجرداء.((فشاع الكرم و ايقاد النار ليلاً على الكثبان و الجبال ليهتدي اليهم التائهون و الضالون في الفيافي، و اشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون مثل حاتم الطائي، و كانوا يقدرون الوفاء و حماية الجار و العزّة و الكرامة و ينكرون الهوان و الضّيم، و كذلك يتصفون بالشجاعة و الفروسية، و كبار القبيلة

يميلون إلى الحكنة والحكمة (المصدر نفسه، ص٦٩- ٧٠).

فلذا المبحث الحاضر يدفع إلى معرفة مكارم الأخلاقية التي كانت موجودة بين المجتمع العربي قبل الإسلام.

الأخلاق في اللغة:

أوردت المعجمات العربية تفسيرات و توضيحات مختلفة لدلالة كلمة ((الخُلق)) و ((الأخلاق)) كادت بعض المعجمات أن تجمع على نفس التفسير و التوضيح. و من المعجمات التي أوجزت في توضيح ذلك القاموس المحيط)) فقد ورد فيه: الأخلاق جمع خلق، و الخُلُق بضمّ اللام و سكونها هو الدِّين و الطبع و السجية و المروءة، و حقيقته أن صورة الأنسان الباطنة و هي نفسه و أوصافها و معانيها المختلفة بها بمنزلة الخلق لصورة الظاهرة و أوصافها و معانيها (فيروز آبادي، ذيل مادة خلق). قال ابن الاعرابي الخلق: المروءة، والخلق: الدين و في التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (قلم/ ٤).

الراغب الأصفهاني فقد أكد على أنّ (الخَلق، الخُلق) و في الأصل واحدٌ فقال: ((والخَلقُ والخُلقِ في الأصل واحدٌ كالشَرَبِ والشُربِ لكن خُصَّ الخَلقُ بالهيئات والأشكال و الصور المدركة بالبصر، و خصَّ الخُلقُ بالقوي و السجايا المدركة بالبصيرة... والخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفظيله. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/ ١٠٢).

و فلان خليقٌ بكذا: أي كأنه مخلوق فيه ذلك كقولك مجبولٌ على كذا أو مدعوٌّ إليه من جهة الخَلقِ. (الراغب ذيل مادة خلق). يقول زبيدي: الخلق هو المملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال و تنقسم إلى : الفظيلة و هي الممدوحة كالعفة و الشجاعة، و الرذيلة: و هي المذمومة كالشر و الجبن. لكنه اذا أطلق فُهم منه الخُلق الحسن.(الزبيدي، ذيل مادة خلق).

الأخلاق في الإصطلاح

الأخلاق هي هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة و يسر من غير حاجة إلى فكر و روية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقاً حسناً، و إن كان

الصادر منها الأفعال النفسية سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً.(الجرجاني، ص ١٠١). الأخلاق علمٌ موضوعه أحكام قيمة تتعلّق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح (المعجم الوسيط، ذيل مادة خلق). يقول البعلبكي: الخُلقُ إسم يطلق على مجموع السمات و العادات و الصفات التي تقررُ فعالية المرء الأجتماعية الأنفعاليه التي تمكننا من التنبّوء بطريقة سلوكه(البعلبكي، ذيل مادة خلق).

الأخلاق في القرآن الكريم:

من القرآن آياتٍ قرآنية عن الأخلاق تدعوا المؤمنين للتخلق بمكارم الأخلاق و منها قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران /١٣٤). ورد تحت مادة (خلق) في القرآن (٢١١) مئتان و أحد عشر أستعمالاً في مئتين و احدي عشرة آية كريمة منها في مئتين و تسع آيات بمعنى الخَلق أو النشأة أو التكوين، و في آيتين فقط بمعنى الطبع أو السجية التي خلق الله تعالى، البشر عليها.

والآيتان اللتان ورد فيهما استعمال لفظة (خُلُقُ) هما:

(القلم / ٤ كما ذكر في الأعلى).

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء / ١٣٧).

الأخلاق في الأحاديث النبوي

هناك روايات كثيرة مذكورة في المصادر الإسلامية حول حسن الخلق مع الناس و كيفية التعامل معهم في حركة التفاعل الأجتماعي، و التعبيرات الواردة في هذه الروايات من هذه الفضيلة الأخلاقية إلى درجة من الكثرة و التأكيد أننا قلّما نجد نظيراً لها في النصوص الإسلامية، و هذا يبين مدي إهتمام الإسلام في هذه الخصلة الحميدة و نختار من بين الروايات الكثيرة ما يلي:

لقد رُوي عن الرسول الأكرم ﷺ كثيرٌ من الأحاديث الشريفة التي تدلُّ على أهمية الأخلاق الحسنة في بناء المجتمع و سعادته.

قال رسول الله ﷺ ((بعثتُ لأُتمّم مكارم الأخلاق(القمي، ص٦٧٥).

وقال ﷺ حسن الخلق يثبت المودّة(الحراني، ص٣٣).

وقال ﷺ حُسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم)) فقيل له: ما أفضل ما أُعطي العبد؟ قال: حسن الخُلق)) (المصدر نفسه، ص٢٧٠).

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: من أدومُ النّاس غَمّاً قال أسوؤُهُم خُلقاً. (جامع الأنبار، ج١ ص١٠٧).

علم الأخلاق والفلسفة

في مجال علم الأخلاق فقد ميز أفلاطون بين العقل و الحس و النفس و الجسم و قد ميز بين اللذة و الألم من جهة و الفضيلة و الرذيلة من جهة الأخرى.٠ فهو يرى أنَّ: ((السعادة لا تقوم في الشهوة القوية و في اللذة بالاطلاق و انّما إنّ الإنسان أسعد حالاً في النظام منه في الاسراف.(كرم يوسف، ص٩٤) فيؤكد على النظم الأخلاقية فهي الوحيدة التي تسعد المجتمع أما اللذات فقد تقودهُ إلى الهلاك و الندم، يتضح ذلك من رديه((إنَّ من اللذات ما هو حسن أي نافعٌ و ما هو رديءٌ أي ضار، و إنَّ من الآلام مه هو حسن نافع كتعاطي الدواء و تحمّل العلاج، و ما هو رديء ضار، و إنَّ اللذات و الآلام الحسنة هي التي تُطلب، و اللذات و الآلام الرديئة هي التي تُجتنب، و إنَّ النافع ما يجلب الخير، و الضار ما يجلب الشر)).(المصدر نفسه، ص٩٥)

الفارابي يؤمن بالعقل الفعال و اتصاله بالاله فيقول:((كما أنّ الإله ملك السماء و العالم و المدبر الحكيم الذي رتب الموجودات كلها، و نظمها تنظيماً حكيماً، كذلك الملك الفيلسوف و هو رئيس المدينة و مدبرها))(صليبا، ص٨٠). و الفارابي له ثقةٌ بفطرة الإنسان و هو متفائل بأن الإنسان فُطر على فعل الخير. و خالف معاصريه الذين كانوا يرون أو يقولون ((الظلم من شيم النفوس)) (المصدر نفسه ص ٨٠).

من آراء ابن سينا الأخلاقية: ((العارف هشٌّ بسّام يبجّل الصغير من تواضعه كما يبجّل الكبير و ينبسط من الخامل كما ينبسط من النبيه. و كيف لا يهشُّ و هو فرحان بالحقّ و بكل شيءٍ يرى فيه الحق و لا فرق عنده بين الكبير و الصغير، و لا يعرف الطمع سبيلاً إلى قلبه. وهذا الخلق هو خلق الرضا و القناعة...)) (المصدر نفسه، ص١٣٣).

من الفلاسفة الغربيين الذين اهتموا بدراسة علم الأخلاق و الربط بين الأخلاق و علم الطبيعة و العقل البشري هو يكون الفيلسوف عما نوئيل كانت. ففي نظره((إنّ الأخلاق توضح قوانين الحرية التي يفرضها الكائن العاقل على أفعاله و يتوقع من الكائنات العاقلة الأخرى التعرف عليها و اطاعتها ... و هكذا فإنّ الإنسان بمقدار ما يكون أخلاقياً يكون عاقلاً و يكون بذلك حراً، و بمقدار ما يكون لا أخلاقياً يكون لا عقلانياً و يكون بذلك عبداً لرغباته الطبيعية)) (رشوان، ص١٥٦).

الحياة الإجتماعية في العهد الجاهلي

يؤكد بعض الباحثين على الطبقة التي كانت سائدةً آنذاك: ((كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها و هم الذين يربط بينهم الدم و النسب و هم عمادها و قوامها، و العبيد و هم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة و خاصة الحبشة، و الموالي و هم عتقاؤها و يدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم و نفتهم عنها لكثرة جرائرهم و جناياتهم، و كانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم و مجامعهم و قد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، و بذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها مثله مثل أبنائها)). (ضيف، ص٦٧).

وقد أثرت هذه البيئة بحياتها القاسية على نفسية الناس في ذلك العصر و سادت طبائع وأخلاق معينة تتناسب و تلك البيئة الصحراوية الجرداء. ((فشاع الكرم و ايقاد النار ليلاً على الكثبان و الجبال ليهتدي إليهم التائهون و الضالون في الفيافي، و إشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون مثل حاتم الطائي، و كانوا يقدرون الوفاء و حماية الجار و العزّة و الكرامة و ينكرون الهوان و الضّيم، و كذلك يتصفون بالشجاعة و الفروسية، و كبار القبيلة يميلون إلى الحكنة و الحكمة)) (المصدر نفسه صص ٦٩- ٧٠).

قيم الأخلاقية في العهد الجاهلي

تعدد الفضائل الإنسانية و القيم الأخلاقية في الشعر العربي، و ذلك لوجود رابط عاطفي و وجداني يجمع بينهما. و سوف أحاول أن أتتبع بعضا منها في القصيدة الجاهلية باعتبارها الأصل الأول و الجامع الكبير لمختلف السجايا العربية التي تفنن الشاعر العربي في وصفها. (الأمالي، ص١١٧).

الحكمة و الحلم و معارضة الباطل و حب الكرم و الشجاعة و الفروسية و العفو عند المقدرة و حماية المستجير و غيرها و كذلك الهجمية و العصبية القبيلة و إثارة الحروب لأسباب غير هامّة. و هذا لا يعني أن هذا العصر منزّه عن الشر و الباطل بل هو كباقي العصور التي مرّت بحياة العرب، و التي اجتمع فيها الخير و الشر و حالهم كحال باقي الأمم الأخرى، ففي نفس الوقت الذي شاعت فيه العصبيات القبيلة و الحروب الطاحنة التي كانت بسبب النزعات الفردية و القبلية و العصبية دون الرجوع إلى العقل و الحلم و روح التسامح و التي راح ضحيتها الكثير من أفراد تلك القبائل المتطاحنة، مع كل ذلك فكان هناك الحكماء و العقلاء و الأخذ برأيهم و عدم الإستسلام إلى العصبية، و كذلك باقي الصفات و الأخلاق الإيجابية التي سيدور حولها هذا البحث، و هي:

١ـ عدم السكوت أو السكون على الذلّ

كانوا لا يقبلون ذلا ولا هوانا، ولا يقيمون على الضيم، فكانوا إذا تعرضوا هم أو حلفاؤهم لأي إهانة استلوا سيوفهم، وبادروا إلى خيولهم، وصاحوا في أبواقهم وأشغلوها حروبا ضروساً، ولو ضحوا في ذلك بأنفسهم، وكان يؤجج من ذلك ما عرف عنهم من سرعة الانفعال، وفورة الاعصاب (المباركفوري، ص٧٢). ولا شك أن هذه النزعة عند البدو أشد وأقوي منها عند الحضر، وقد فسر ابن خلدون السبب في ذلك فذكر في مقدمته تحت عنوان " أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر " فيقول " والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحه والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم، والحزر الذي يحول دونهم، فلا يهيجهم هيعة، ولا ينفر لهم صيد، فهم آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحى، وبعدهم عن الحامية وانتبائهم الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يقضون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، يتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس، وعلى الرمال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبات والهيعات، ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم،

قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع، أو استنفرهم صارخ، وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية، أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من امر أنفسهم ... والأصل أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي الفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة " (ابن خلدون، ص١٢٥). من الصفات الكريمة والمكارم الأخلاقية التي تحلّى بها العرب الجاهلية الإباء وعدم السكوت على الذلّ وذلك الأمر يتطلب البأس والشجاعة والعزم والإرادة على وقوف أمام هذا الرذيلة:

يتجلى ذلك في شعر شنفري الذي يقول:

ولكـــن نفســـاً مـــرةً لا تقـــيم بي علـــى الضـــيم إلّـــا ريثمـــا

(ديوان شنفري، ص٥٨)

يحسب شنفري بأنَّ البقاء يسبب الذّل و الحماقة فلذا يجب أن يسفر إلى مكانة أخرى.

يقول عمرو بن كلثوم:

إذا مـــا الملـــك ســـامُ النـــاس خســـفاً أبينـــا أن نُقـــرَّ الـــذُلَّ فينـــا

(الشنقيطي ص١٤١)

و عزّة النفس من الصفات التي يفتخر العربي بها و كثيراً ما يرى أن الحياة بعزة أو الموت بشرف، و قد يتجللا هذا في كلام حصين بن حمام

تـــأخرت اســـتبقي الحيـــاةَ فلـــم أجـــد لنفســـي حيـــاةً مثـــل أن أتقـــدما

فلســـنا علـــى الأعقـــاب تـــدمي كلومنـــا ولكـــن علـــى أقـــدامنا تقطـــر الـــدما

قلّما ذكر الشعراء تأخرهم أو تراجعهم في الحرب أو جبنهم و جبّهم للحياة و لكن الشاعر حصين بن حمام يعترف بتأخره و ثم أحساسه بأنّ تأخره هو الموت والحياة في تقدمه لأن تقدمه أما يقوده إلى عيش عزيز أو إلى موت شريف.(العسكري ص١١٥).

٢ـ حفظ الجار و الصديق

من الأخلاق التي يتحلى بها العربي في الجاهلية حفظ الجار و الصديق و كان يفتخر بذلك.

فيقول لبيد بن ربيعه في وصيته لمل حضرته الوفاة مخاطباً ابنتيه:

تمنّـــي ابنتـــاي أن يعـــيش أبوهمـــا ... و هـــل أنـــا إلّـــا مـــن ربيعـــة أو مُضَـــر

فقـــولا فقـــولا بالـــذي قـــد علمتمـــا ... فـــلا تخمشـــا وجهـــاً و لا تحلقـــا شـــعر

وقـــولا هـــو المـــرء الـــذي لـــيس خلّـــهُ ... أضـــاع و لا خـــان الصـــديق و لا غـــدرَ

(ديوان لبيد ص٧٣)

فهو يوصي ابنته بأن تذكرا أباهما للناس و تقولا بأنه حافظ على صديقه و جاره و لم يخنهما أو بهما، فكأنه يريد أن يقول لابنتيه أن خير ما يذكر به أبوكما هذه الصفات و الأخلاق الحميدة، و يضيف إلى ذلك ايمانه بأن الإنسان يجب أن يؤمن بالنهاية المحتومه و هو الموت، و يطلب منهما أن لا تحزنا و لا تجزعا أو تخمشا وجهيهما أو تحلقا شعرهما و هذه ظاهرة أخلاقية رفيعة المستوى إذ كان من المألوف شق الجيوب أو لطم الخدود و غير ذلك من تجبّر على إرادة الخالق التعالي.

٣ـ الكرم و الشجاعة

كان من أهم الصفات التي حرص العربي على التحلي والتفاخر بها، وذم البخل وعير صاحبه، وكان لبيئتهم وظروفهم أثرا بالغا في تدعيم هذه الصفة عندهم، ففي كثير من الأحيان قد يجد العربي نفسه في اثناء سفره وترحاله وحيداً في وسط صحراوي جدب وصحراء قاحلة لا ماء ولا طعام وليس إلا السماء والارض عندئذ لا يكون أمامه مفر سوى النزول ضيفا على أهل الخيام المتناثرة، وهنا يكون استقبال الضيف واكرامه مسألة حياة او موت، وكان التقاعس عن القيام بواجب الضيافة يعنى تعريض حياة الضيف لخطر الموت جوعا وعطشا، ولذلك فقد اصبح إكرام الضيف والقيام بحقه واجبا من واجبات الجاهلية، وكانت مدة الضيافة ثلاثة ايام، وبعدها ينتهى حق الضيف إلا إذا جدد المضيف هذا

الحق(المباركفوري، صص ٣٣٥- ٣٣٦). وكان من أشهر أجواد العرب حاتم الطائي الذي كان يضرب به المثل في الكرم والجود من صغره حتى يقال أنه خرج يوما يراعي أبله وغنمه، مر به بعض الشعراء مثل النابغة الذبياني وغيره، فأكرمهم وأحسن ضيافتهم، وقبل انصرافهم فرق عليهم غنمه وابله، فلما علم ابوه بذلك غضب عليه وقال: إذن لا أساكنك بعدها آبداً ولا آويك؟ فقال: لا أبالي (المصدر نفسه، ج٤، ص٥٧٧).

ومما يذكر له أيضا أنه إذا أهل شهر رجب نحر كل يوم بعضا من ابله، وأطعم الناس، وكان إذا اشتد البرد أوقد ناراً حتى يهتدى بها الضال والمسافر والغريب فيجدون عنده المأوى والطعام وفي ذلك يقول لعبده:

أوقد فإن الليل ليل قُر ... والريح يا واقدُ ريح صرُ

عسى يرى نارك من يمر ... إن جاءنا ضيفُ فأنت حُر

وكانت في داره قدور كبيرة الحجم لا تنزل عن الآثافي والنار أبدًا، لكثرة ضيوفه والمترددين عليه، وحكى عنه ايضا أنه اجتاز يوما في سفره على جماعة، وفيهم أسير فاستغاث به فاشتراه منهم، وقام مقامه في القيد والأغلال حتى أدي ما عليه من ثمن الأسير (المصدر نفسه، ج ٤ ص٥٧٧).

وأيضاً:

إذا مات منا سيدٌ قام بعده ... نظيرٌ له، يغني غِناهُ ويخلِفُ

وانّي لأَقرِي الضيف قبل سؤالهِ ... وأطعن قِدماً، والأسنّةُ تَرعُفُ

(ديوان حاتم الطائي، ص٧٠)

وكان من كرم العرب أيضا أنهم كانوا يتحملون الديات العظيمة، يدفعونها من اموالهم عن طيب خاطر حقنا للدماء، وإيثاراً للسلامة، وتخفيفاً عن ذوى العسرة من أبناء قبائلهم، وكانوا يتنافسون في ذلك ويعتبرونه من دلائل الشرف، وعلامات السيادة، وقد عبر عن ذلك الأخنس بن شريق فقال " تنازعنا نحن وبنو مناف الشرف أطعموا الطعام فأطعمنا، وحملوا الديات فحملنا، وأعطوا فأعطينا فكنا كفرسي رهان"(القزويني، ص٦٧).

الصفة التي لها علاقة بالكرم و الشجاعة هي العفو عند المقدرة فيقول عنتره في ذلك:

هــلا ســألت الخيــل يــا ابنَــةَ مالــك ... إن كنــتِ جاهلــةً بمــا لم تعلمــي

يخــبرك مــن شــهد الوقيعــة أنّــني ... أغشــى الــوغى وأعــفُّ عنــد المغــنم

فــأري مغــانم لــو أشــاء حويتــها ... فيصــدّني عنــها الحيــا وتكرُّمــي

(النحاس، ص٥٠٦)

وهذه صفة من أعظم الصفات التي تدل على الإلتزام أخلاقي عند الشاعر الجاهلي وهي من القيم التي كان يفخر بها.

٤ـ الحلم

على الرغم مما عرف عن العرب من شدة الانفعال، وفورة الأعصاب، فقد غلب على سادتهم وأشرافهم وعقلائهم صفة الحلم، فكانوا يمثلون صوت العقل والحكمة، يبثون الأمن والطمأنينة فيمن حولهم، فقد سعوا بين الناس بالسلم والود، وأطفئوا نيرانا للحرب، وانهوا خلافات وصراعات بين القبائل، وحقنوا الدماء، وتحملوا الديات سعيا لوحدة قبائلهم، ولم شملها، وتوحيد كلمتها .

وكان من أشهر حكماء العرب صاحب المقولة الشهيرة "سيد القوم خادمهم". أي الساعي في خدمة أبناء قبيلته، ولما سئل بماذا سدت قومك قال: بثلاث خلال، بذل الندى، وكف الأذى، ونصرة المولى، وقال أيضا : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم الذي جاءه خبر قتل ابنه، فلما جاءوا بالقاتل، أقبل عليه وقال لمن حوله : أرعبتم الفتى، ثم دنا منه وقال : يا بنى لقد نقصت عددك وأوهنت ركنك وفتت في عضدك، وأشمت عدوك وأسأت لقومكك، ثم أمر أن يخلو سبيله وما حل حبوته ولا تغير وجهه (جواد على، ص ٥٨٥-٥٨٦).

من الشعراء الصعاليك المعروفين بفتكهم و قسوتهم الشاعر الشنفري نجده يفخر بحكمة و قوة رأيه وحلمه و تركه المعايب وتظهر حكمته وسداد رديه في لامية المشهورة بلامية العرب.

وفي الأرض منــدي للكــريم عــن الأذى ... وفيهــا لمــن خــاف القلــي متعــزّل

لعمــرك مــا في الأرض ضــيق علــى امــريء ... ســرى راغبــاً أو راهبــاً و هــو يعقــل

أديم مُطــال الجــوع حــتى أميتــه ... و أضــرب عنــه الــذكر صــفحاً فأذهــل

و أعـــدمُ أحيانـــاً و أغـــني و إنّمـــا ينـــال الغـــني ذو البعـــدةِ التبـــذّلُ
فـــلا جـــزعٌ مـــن خلـــةٍ متكشّـــفٍ ولا مـــرحٌ تحـــت الغـــني أتخيـــلُ
ولا تزدهـــي الجهـــال حلمـــي ولا أرى ســـؤولاً بأعقـــاب الأحاديـــث أنمـــل

(زيدان،، ج١ص١٤٠).

و يطالعنا حاتم الطائي في شعره فنلمس حكمته و حلمه في قوله:

تَحمَّـل عـن الأدنـين و اسـتَبقِ وُدَّهـم و لـن تسـطتيع الحلـم حـتى تَحلَّمـا
مـتى تـرق أضـعان العشـيرةُ بالأنـا وكـفِّ الأذى، يحسـم لـك الـداءُ محسـما

(حاتم الطائي، ص٨١)

فنستنتج من قوله أن معالجة الحقد و مسح الكراهية من القلوب و عدم اشعال نار الحرب و الفتنة لا تتم إلّا بالحلم و التعقل فهي الكفيلة بحقن الدماء و عدم وقوع الحروب. وقد اشتهر زهير بن أبي سلمي بشعر الحكمة و ديوانه مليء بحكمه منها في معلقته:

رأيـت المنايـا خـبط عشـواء مـن تصـب تمتـه و مـن تخطـيء يعمـر فيهـرم
و مـــن لم يصـــانع في أمـــور كـــثيرةٍ يضـــرّس بأنيـــاب و يوطـــأ بمنســـم
و مـن يجعـل المعـروف مـن دون عرضـه يفـرهُ و مـن لا يتـقّ الشـتم يشـتم
و مـــن هـــاب أســـباب المنايـــا ينلنـــه و إن يـــرق أســـباب الســـماء بســـلّم

(الشنطيقي، ص٨٦)

٥ـ الوفاء بالعهد

كان يهون في نظر العربي كل نفيس وغالي للحفاظ على عهده، واحترام وعده، ولم تكن الاتفاقيات والأحلاف والتجارات والأمانات موثقة أو مكتوبة، وإنما كانوا يعتمدون على الكلمة أو العهد الذي اكتسب قوة ونفاذاً مع حرص العرب على الوفاء به، خاصة وأن نقضه كان يعرض القبائل والأفراد للمعرة والمنقصة، وقد تعددت صور ونماذج وفاء العرب بعهودهم إلى حد يثير الإعجاب. ومن ذلك ما حدث مع هانئ بن مسعود الشيباني الذي صمد أمام الإمبراطورية الفارسية ولم يأبه لكسرى ولا تهديداته حفاظاً على وعده الذي قطعه على نفسه بحماية أهل النعمان بن المنذر وأمانته(أبوالفضل ابراهيم، ص٢٢). كما

ضرب السمؤال بن عاديا مثلاً أخر في الوفاء بالعهد، فيقال "أوفى من السمؤال" وذلك عندما أودع امرؤ القيس عنده دروعاً وسلاحًا، وذهب إلى قيصر يستجد به على أعدائه، واستغل هذه الفرصة الحارث بن شمر الغساني فطلبها من السمؤال وآصر على انتزاعها منه، ولكنه أبى وتحصن بقصره في تيماء، وكان ابنه خارج القصر، فأخذه الحارث الغساني رهينة عنده، وأخذ يساومه، وهدده بقتل ابنه إن لم يستجب لمطلبه، إلا أن السمؤال ظل محافظاً على عهده حتى وهو يرى ابنه يذبح أمامه (القزوينى،ص٧٤). ومن أعجب ما يروى أيضاً من قصص وفاء العرب بوعدهم ما حدث مع المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء عندما حكم على رجل من طيئ يقال له حنظلة بقتله وفي الموعد المحدد التقى مع المنذر فقال له: لا بد من قتلك فسل حاجتك، فقال: أخرني حتى ارجع إلى أهلي، وأفعل ما أريد ثم أصير إليك، فتفعل بي ما تشاء، فقال المنذر: ومن يكفلك أنك تعود، فنظر الرجل في الحضور، فعرف شريك بن عمر بن شراحبيل الشيباني وكان من سادات العرب وأشرفهم فقال:

يـــا شـــريك يـــا ابـــن عمـــرو ويـــا أخـــاً مـــن لا أخـــاً لـــه

فوثب شريك وقال للمنذر: أبيت اللعن يدى بيده، ودمى بدمه فأطلقه المنذر بعد ان أمهله عاما كاملا يعود بعده لينفذ الحكم. فلما حال الحول، وحان الأجل، جلس المنذر ينتظر حنظلة، فلما أبطأ قليلا تقدم شريك ليقُتل مكانه، وبينما هو كذلك لم يشعر إلا بركب قد ظهر من بعيد فإذا هو حنظلة قد تكفن وتحنط وتهيأ لمقتله، فلما رآه المنذر عجب من وفائه وقال له: ما حملك على قتل نفسك؟ فقال إن لي ديناً وخلقاً يمنعاني من الغدر، فاستحسن ذلك منه وأطلقهما معاً (المصدر نفسه، ص٤٢٧- ٤٢٨).

وقد أقر الإسلام هذا الخلق الكريم فقال اللّه عز وجل ممتدحا أهله ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة، الآية /١٧٧).

٦ـ رفض السرقة

السرقة تعني أكل حق الآخرين بالباطل وقد رفضها الشاعر الجاهلي لكونها تضيع حقوق الناس ويتمتع بتلك الحقوق غير أصحابها الشرعيين فيرفض طرفة بن العبد ذلك بقوله:

ولا أغـــير علـــى الأشـــعار أســـرقها عنـــها غنيـــتُ و شـــرُّ النـــاس مـــن ســـرقا

(الزركلي، ج٣، ص٢٢٥)

فالسرقة في نظره شرّ و من يسرق هو شر الناس.

٧ـ التفاخر والزهو

اشتهر العرب بحبهم للزهو والتفاخر، فكانوا يتفاخرون بالأباء والأجداد والأنساب والأحساب والشرف والسيادة، وكثرة الأبناء والأعداد والانتصارات، وتمادوا في ذلك فافتخروا بأموالهم، وما ملكوه من دواب وخيول، وغيرها، ولم يقتصر تفاخرهم على الأحياء فحسب، بل امتد أيضا إلى الأموات فكانوا ينطلقون إلى المقابر فيشيرون إليها ويذكرون أصحابها ويفتخرون بهم، وبأمجادهم(جواد على ج٤، ص٥٨٩).

(فأنزل اللّه سبحانه وتعالى قوله تعالى)، (البقرة، / ١٧٧). ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

وكانوا يعقدون مجالس للمفاخرة بينهم، فيبدأ كل طرف بالمفاخرة بقبيلته فيرد عليه خصمه كذلك، وكان وكانوا يعقدون مجالس للمفاخرة بينهم، فيبدأ كل طرف بالمفاخرة بقبيلته فيرد عليه خصمه كذلك، وكان يجلس الحكام للحكم بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر، كان لهذه المفاخرات أثارا إيجابية وسلبية على السواء، إذ أثارت روح الحماسة والحمية والفخر في نفس العربي الذي حرص على الحفاظ على هذه المفاخر، أما أثارها السلبية فقد كانت سببا لإثارة روح البغضاء والأحقاد بين الأفراد والقبائل يجلس الحكام للحكم بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر، كم كان لهذه المفاخرات أثارا إيجابية وسلبية على السواء، إذ أثارت روح الحماسة والحمية والفخر في نفس العربي الذي حرص على الحفاظ على هذه المفاخر، أما أثارها السلبية فقد كانت سببا لإثارة روح البغضاء والأحقاد بين الأفراد والقبائل.

٨ـ رفض الظلم

الظلم كذلك من الصفات الذميمة، و الذي يمكن أن يقع في كل زمان و مكان، إلّا أن الناس تتفاوت في قبوله و رفضه الناس يقرُّ الظلم لأنه ينتفع به و يستفيد منه و البعض الآخر

يرفضه لأنه يسيءُ للناس و خاصةً الضعفاء الذين لا حول لهم و لا قوة. فيقول الشاعر الجاهلي في ذلك:

و ظلـــم ذوي القـــربي أشـــدُّ مضاضـــةً علـــى المـــرء مـــن وقـــع الحنســـام المهنّـــد

(طرفه، ديوان، ص١٥٣)

النتيجة:

حسب الشواهد والتفحصات المتمَّم مشهودٌ، أن الأخلاق كانت موجودةٌ في عهد الجاهلي قبل ظهور الإسلام. لكن رغم هذا ما وضع لها مقاييسٌ و تعاريفٌ واضحةٍ. على كلٍّ عكس قول بعض الأشخاص الذي يعتقدُ بأن اعراب الجاهلي كان بعيدٌ عن الإنسانية و الفتوَّة كانت لهم مكارمٌ أخلاقية متينةٍ الذي مقبوض عليهم شديدٌ؛ حيث يفدي نفوسهم و أموالهم لصيانتها.

كانت واضحةٌ أن شعب العرب الجاهلي يكون شعب إجتماعي الذي يحب السُّلالة كثيراً، فلذا يسبب هذا الأمر عني اعراب الجاهلي إلى جوانب الإنسانية و الفتوّةَ عنايةً كثيرةً. فالأخلاق تُعتَبرُ بينهم بمثابة كلفةٍ و مقياسٍ مُهمَّةٍ و متينةٍ.

قائمة المراجع و المصادر

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

- ابراهيم، محمد ابوالفضل، أيام العرب في الجاهلية و ما بعدها.
- ابن خلدون، عبدالرحمن، نشرة العلمية و الثقافيةف تهران، ١٣٩٣هـ.ش.
- ابن ربيعة العامري، لبيد، ديوان الأشعار، دار صادر، ٢٠١١م.
- ابن العبد، طرفه، الديوان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ابن مالك، عمرو، ديوان شنفري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ، ١٩٩١م.
- بعلبكي، منير، موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
- جامع الأنبار، ج١.
- الجرجاني، على بن محمد، دار المكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ. ق، ١٩٨٣م.

- جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤.
- الحراني، الشيخ أبو محمد الحسن بن على، تحف العقول، منشورات الشريف الرضي، ط٥، ١٣٨٠ هـ. ق، ١٩٦١م.
- رشوان، محمد مهران، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٨م.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضي، تاج العروس، مكتبة النهضة ط٢، ١٩٨٣م.
- الزركلي، خيرالدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، ط٢، ١٩٩٢م.
- الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، تح نديم مرعشلي، ط٢، ١٩٧٦.
- الشنطيقي، أحمد الأمين، شرح المعلقات العشر، المكتبة العصرية، بيروت، ط٣، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- صليبا، جميل، من أفلاطون إلى ابن سينا، دار الإندلس، بيروت، ط١، ١٩٥١م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.
- الطائي، حاتم، ديوان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.ق، ١٩٨١م.
- العسكري، أبو هلال، ديوان المعاني، دار الكتب العلميظ، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- القالي، أبو علي، الأمالي، ج١، تحقيق محمد عبد الجواد، دار الكتاب العربي، بيروت.
- القزوينى، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، ٦٧٤هـ.ق.
- القمي، الشيخ عباس، سفينة البحار، دار الأسوة للطباعة و النشر، ط١، ١٤١٤هـ.ق.
- كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار العلم، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٧٧م.
- لجنة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، ط٥، ١٤١٦ هـ.ق.
- النحاس، أبو جعفر بن محمد، أشهر القصائد التسع المشهورات، ج٢، دار العربية للموسوعات، ٢٠١٠م.
- المباركفورى : الرحيق المختوم، ص ٣٣٥،٣٣٦ نسخة محفوظة يناير٢٠٠٧ على موقع واي باك مشين.